

حدائق الموتى

ومقابر الأحياء

حين يشارف قطار حلوان مداخل العاصمة من الناحية الجنوبية الشرقية ، تقع العين على مفارقات عجيبة لا نحسب أنها تلحظ في غير مصر من بلاد الله .

فما يكاد يفادر المعادى ، تلك الضاحية الجميلة المنسوقة على طراز الجنة — إن كان للجنة طراز معروف بين أبناء الفناء — حتى يشرف على معاور " المدايغ " ومقازرها ؛ وهذه يسكنها جماعة من الأحياء يقول الدستور : إنهم وجميع المصريين أمام القانون سواء . ثم ما يكاد يفادر هذه المباني وتلك المقابر ، حتى يشرف على غياض " ماري جرجس " وحدائقها الفناء ؛ وهذه يتولى فيها جماعة من الموتى السعداء . حتى إذا انتهت تلك الغياض واختفت عن الأنظار طالعتها كهوف " طيلون " وأكوامها القذرة ، وهذه مساكن جماعة أخرى من الأحياء ، يقر الدستور كذلك أنهم وجميع المصريين أمام القانون سواء !

وكأما قامت مقادير المدايغ من ناحية وطيلون من ناحية أخرى على جانبي تلك الغياض الوريقة في ماري جرجس سورا من الأشواك يحمى هذه الرياض ، وكأما قام سكان هذين الحيين من الأشقياء حراسا على أولئك الموتى السعداء !

هذه المفارقات العجيبة تتوالى على العين فيما لا يزيد على ربع الساعة في مدخل من مداخل العاصمة ، ولكنها ليست المفارقات الوحيدة في هذا الباب ، فقد سمعنا عن بعض من كلفوا مدافنهم ثلاثين ألفا من الجنيهات ، وأمدوها بالنور الكهربائي وبالماء الساخن والبارد ، وأجهزة التلفزيون والراديو لعلها تسمع من في القبور !

وبينا هذه المدافن كذلك توجد عشرات الأحياء لا ينفذ إليها النور ، ولا تستقي إلا من آسن الماء ومناقع الموارد ولا تسمع عن الراديو إلا في قصص العفاريات والجان ! ولا نحب أن نعقد الموازنة بين مساكن بعض الأحياء وبعضهم في العاصمة والريف ولكننا نكتفى بعقدها بين حدائق الموتى ومقابر الأحياء في جيل واحد من النامس والزمان . وهي تبدو في صورة مفارقة بشعة ينفر منها ذوق بنى الإنسان .

وهكذا كل شيء في مصر ذو وضع مقلوب ، كوضع الحدائق للموتى والمقابر للأحياء والسبب لا يرجع إلى اليوم أو إلى الأمس ، وإنما يرجع لسياسة الحكم القديمة المتطاوله في العصور السحيقة ، وهي سياسة السادة والعيبد : السادة الذين لهم كل شيء ، والعيبد الذين لا يملكون شيئا .

وقد أثمرت تلك السياسة على مدى الأجيال ذلك التفاوت العظيم في توزيع المغنم والمغارم وفي توزيع العناية والاهمال بين المدينة والريف وبين بعض أحياء المدن وبعض أحيائها الأخرى ، وبين بعض طبقات الشعب وبعض طبقاته ، بلا مثل له إلا في الهند حيث البراهمة والمنبوذون . وفي الهند وجد المنبوذون "غاندى" يطهرهم ويكفيهم ويحاول أن يفتح لهم أبواب المعابد وأبواب الحياة ، والمنبوذون في مصر في حاجة الى "غاندى" آخر يريد إليهم اعتبارهم في عالم الواقع لا في عالم النظريات القانونية .

من قال : إن هؤلاء الذين يعيشون في حى المدايح وأمثالهم سواء مع بقية المصريين المتمتعين ؟ وكيف تتحقق هذه المساواة - حتى القانونية - وهؤلاء يملكون المال الوفير والصحة الكاملة والعقل المستنير . وأولئك محرومون من هذه جميعا . كيف يتساوون حين تشجربينهم الخلافات القانونية ، وهؤلاء يعرفون القانون ويتقنون طرق التقاضى ويكفون المحامين للدفاع ! وأولئك سواهم ترعى ولا تجد مارتعاه !

لكن عمليين ، فلو كان هؤلاء وأولئك أمام القانون سواء ما حدث هذا الذى يقصه علينا أحد الكتاب في هذه المجلة عن حى المدايح وعن سكانه العمال فيقول :

"وارتقينا ربوة عالية ، فإذا بنا نشرف على واد فسيح اجتمع له الماء والهواء وسعة الصحراء ولكنه ماء آمن راكد ، وهواء فاسد خائق ، وصحراء متربة ليس فيها سوى الركام والأتقاض .

"هذا هو حى المدايح ، وإن شئت فقل هو حى الوباء ومصدر الأمراض والأدواء . وما ظنك بمكان لا ترى فيه إلا كل قبيح ولا تسم إلا الكريه ؟ سرنا فيه بين أحوال وقنوات تجمع فيها ماء المدايح المتخلف من تنظيف الجلود وظل بها حتى زاد فسادا وملئ وباء .

"وسارع الأهلون إلينا يشكون الحكومة قبل أن نشكو إليها ، يقولون إنهم بعثوا بالمظالم والالتماسات تارة بالبريد وأطوارا بالبرق ونادوا تفتيش بحمة القاهرة ومصلىحى الجارى والتنظيم ولكن ذهب جهدهم أدرج الرياح فاستكانوا ورضوا بما حاق بهم من أذى وبلاء .

"على أن المصيبة على فداحتها - مصيبة ترك الجارى مكشوفة يأسن بها الماء - مفيدة لشركة السماد التى يسهل عليها جمع الطين المختلط بالمواد العضوية لتبيعه سمادا قيا بمن كبير .

"وانتقلنا إلى مدايح الحور - والحور جلود الماعز وما شابهها - فكادت المياه المتخلفة أمامها تموقنا عن دخولها لولا تضحيتنا بنظافة أحذيتنا وجواربنا في سبيل بلوغ غايتنا .

"دخلنا المدينة فهالنا مارأينا بها : صببية ورجال عرايا لا تسترهم إلا حرق صغيرة ، يعملون وقد اختلط عرقهم بنفائيات الجلود ودمائها ، غائمين في الماء الأسن الى سيقانهم .

”وتقدم إلينا صاحب المدبفة، فسألته عن حال العمال فأجاب: ”معدن ... أحسن منا نحن أصحاب المدايح. أجور عالية وصحة كاملة وساعات شغل طبق نص القانون، انظر إلى الأجرخانة التي عملناها تنفيذاً لأمر مصلحة العمل“ وأشار إلى صندوق صغير به بعض زجاجات صغيرة وقليل من التطن .

”يشتغل عمال المدايح في الوضع الذي وصفته عشر ساعات في اليوم، وأكثرهم لا يتقاضى أجراً ثابتاً، بل يعملون بما يسمونه ”الطريخة“ فترى العامل كآلة يعمل دائماً مستميتاً لإنجاز أقصى ما يمكن، وهو رغم ذلك لا يكاد يحصل على كفايه إذ لا يتجاوز أجر الرجل في المتوسط ستة قروش في اليوم والفلام قرشاً واحداً .

”غير أن أمر الأجور ليس ذا بال إذا قيس بما يتعرض له العمال من ضرر يذهب بصحتهم ويعود عليهم بأخطر الأمراض. ففساد الهواء في داخل المدبفة وفي خارجها والبلل والماء الذي يفرقون فيه بأقدامهم وسيقانهم طول يومهم يسبب لأكثرهم مرض السل والروماتيزم .

”وقد سألت البعض كيف يقوى العمال على الجؤ الخائق الذي لم نطقه لحظات، فقال ”البركة في الشاي والنشادر“ إذ كلما أغمى على أحدهم يعمل على إفاقته بالنشادر وأعطى قليلاً من الشاي لينهض ويعود إلى مغالبة الموت ومواصلة الكفاح في سبيل العيش .

”على أن هناك فريقاً من العمال يعملون فيما هو أبشع مما رأيت وأشنع . إذ يقتضيه عملهم أن ينزلوا عراة في أحواض الجير ويمكثوا فيها طول يومهم. ولسنا ندرى كيف يقوى هؤلاء المساكين على احتمال نار الجير الكاوية ؟“

هؤلاء هم عمال المدايح وسكان الحى ، فهل هؤلاء سواء مع بقية المصريين المتمتعين المترفين ؟ هل هؤلاء سواء مع أولئك حتى أمام القانون ؟ وهل يصل القانون إلى هذه المجاهل ، ثم يترك هذه الحالة المفزعة التي يصفها الأستاذ محمد عبد الكريم في تلك السطور ؟

إن العصر الحديث أو الحكم الحديث مطالب أن يرد الأمور إلى نصابها ، وأن يرد على هؤلاء الآدميين وأمثالهم كرامة الآدمية ، وأن يجعلهم وجميع المصريين سواء حقيقة أمام القانون !

ولسنا نطالب بإزالة الفوارق بين الأفراد، فهذه الفوارق ضرورة طبيعية لا بد منها مادام الأفراد يولدون غير متكافئين ولكننا نطلب تقريب هذه الفوارق ، بحيث تجمع بين الجميع رابطة إنسانية ، فلا يصبح هؤلاء جنساو أولئك جنسا آخر ، كما هو الحال في مصر منذ عشرات الأجيال .

والسبيل إلى ذلك هو (أولاً) رفع الأجور ، فقد تفاعل الكثيرون برفع الحد الأدنى للأجور إلى خمسة قروش . ولكن ماذا تساوى هذه القروش الخمسة في هذه الأيام ؛ إنها تساوى ثمن قدح من الذرة أو رطل من اللحم المجالى فماذا تصنع لرجل يعول زوجة وأربعة أولاد - وهو متوسط من يعوله العامل الواحد - إن هذه القروش الخمسة قيمة اسمية في هذا الغلاء الذى يزيد في ثروة الأغنياء كما يزيد في فقر الفقراء .

والسبيل إلى ذلك (ثانياً) هو إعفاء الفقراء وضرورياتهم من الضرائب والرسوم ، وقد بدأت الحكومة بداية طيبة بإعفاء صغار الملاك من الضريبة وبقى أن تعفى ضرورياتهم من الرسوم عند الاستيراد أو عند الانتاج المحلى وأن تعوض ذلك من رسوم الكماليات التى لا يعجز مستهلكوها عن دفع الأثمان المرتفعة .

والسبيل إلى ذلك (ثالثاً) هو فرض ضرائب إضافية باسم الخدمة الاجتماعية ، وإنفاق المتحصل منها على رفع مستوى الطبقات المحرومة التى لا تحصل في حياتها على مستوى الحيوانات . وليس في هذا مبالغة ؛ فلتكن لهؤلاء الأدميين بعض حقوق الحيوانات !

تسيل جهود أو دماء غزيرة	لينصب تمثال ويرفع منزل
وما نصب التمثال للكادح الشقى	وليس له في ذلك القصر موئل
ولكن قصاره شراب ولقمة	وأفراخه خضر وأنشاه مطلق
فيا رحمة الإنسان أدعوك فانهجلى	أمام بنى الانسان ، لو كان ينجبل !

شاعر